الجزار الشاعر

للأستاذ العباس خضر

نشأ بين الساطور والوضم ، يصيب المحز ويطبق المفصل في اللحم وفي الشعر وكان ذلك في مدينة الفسطاط ، وفي القرن السابع الهجري ، في فترة من الزمان انتقل فيها حكم الديار المصرية من الأيوبيين إلى المماليك ، وعاش شاعرنا الجزار (أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم) مخضرماً بين الدولتين ، آناً يطوف بالمدائح على الملوك والأمراء وحيناً ينطوي على نفسه لما يلقاه من إخفاق فيما يؤمل من هذا الطواف ، ولما يبلوه من أخلاق الناس ، ملتجئاً إلى حرفته راضياً عنها ، فهو أبداً بين كلاب : كلاب آدميين يقصدهم بمدحه لينال رفدهم ، وكلاب حقيقية من آل قطمير [1] تحوم حوله متطلعة إلى ما يلقى إليها من العظام ، وهو يؤثر حاله مع الثانية كما ترى في قوله :

لا تعبني بصنعة القصاب فهي أذكى من عنبر الآداب
كان فضلي على الكلاب فذ صر ت أديباً أرجوت فضل الكلاب

كان أبوه وقومه قصابين بالفسطاط ، ونشأ بينهم محترفاً حرفتهم ، وقد دفعه شغفه بالأدب إلى التعلق به ، وأول ما عرف منه في ذلك ، وهو صغير ، أنه نظم أبياتاً قلائل ، فأخذه أبوه وتوجه به إلى شاعر مشهور في ذلك العصر ، هو ابن أبي الإصبع وقال له : يا سيدي ، هذا الولد قد نظم شعراً واشتهى أن يعرضه عليك . فقال : قل . فلما أنشده قال له : أحسنت ، والله إنك لعوام مليح . فراح الوالد مسروراً بابنه الذي يوشك أن يغشى بشعره مجالس الملوك والكبراء . وأراد أن يعبر عن شكره لابن أبي الإصبع ، فصنع طعاماً وحمله إليه . ولكن ابن أبي الإصبع كان قد طابت له « التورية » التي كانت جُلَّ همِّ أدباء ذلك الزمان ، فقال له : لأي شيء فعلت ؟ فقال : لثنائك على ولدي . فقال : أنا ما أثنيت عليه . فقال : ألم تقل إنك عوام مليح ؟ فقال : ما أردت بذلك إلا أنه خرج من بحر إلى بحر !

ولكن الصبي الجزار دأب على قرض الشعر ، يضرب في بحوره ويغوص على غرائب المعاني ، ويكسوها أصداف الألفاظ ، حتى استبان طريقه وتوضحت له الجادة .

كان يتطلع إلى حياة أخرى يتمتع فيها بلذات العيش غير حياة الجزارة التي يشقى فيها على غير طائل ، كما يقول :

إعمل في اللحم للعشاء ولا أنال منه العشـــا فما ذنبي
خـلا فؤادي وفي فمي وسخ كأنني في جزارتي كلبي !

وكما يقول :

أصبحتُ لحاماً وفي البيت لا أعرفُ ما رائحـــة اللحم
واعتضت من فقري ومن فاقتي عن التـذاذ الطعم بالشـحم
جهلتـه فقراً فكنت الذي أضـــلهُ اللهُ على عـلم !

لم يكن أمامه إلا أن يرتاد سوق المدائح ، فانتجع القصور ، وأنشد ما كتبها ، ولم يغفل — مع مدحهم — وصف حاله وما يعانيه من الحرمان ، قال في آخر قصيدة مدح بها الملك الناصر ، وأنشده إياها في يوم النحر :

كيف يبقى الجزار في يوم عيد النـ ـحر دهر الإفلاس والعيد عيده
يتمنى لحم الأضاحي وعند النا ـس منـــه طريهُ وقديده
ولقـد آن من لقائك أن تبـ ـيض أيامـه ويخضر عوده

واتصل أيضاً بالملك الكامل والملك العادل ومدحهما كما مدح غيرهما من الحكام والأعيان . وأكثر من التنقل بين أقاليم القطر من الاسكندرية إلى أقصى الصعيد ، يقصد الممدوحين ، ويصف النيل وأسفاره فيه وما يلاقي بها من العناء ، ويقدم ذلك في مطالع القصائد بين أيدي المدائح ، قال من قصيدة في مدح ناظر الاسكندرية يصف رحلته في النيل :

لا تسلني عما لقيت من البيـ ـن فحال الغريب حال ذميم
كنت في كـكة تطير بقلم وهي طوراً على المنايا تحوم
أنظر الموج حولها فإخال الـ ـجيم تاء خليفتي وهي جيم
لم أجد لي فيها صـديقاً حميما غير أني بالماء فيهـــا حميم

(١) قطمير : اسم كلب أهل الكهف .

شنقوا قلمها مراراً على الري ـ ـج ولا شـكّ أنه مظلوم
وإذا ما دنت إلى البر أمسى عندنا منهُ مقـــمدٌ ومقيم
يسجدُ الجرف كلما ركع المو ج فـدأبي هنالك التسـليم
وقبيحٌ عليّ أن أشتكي براً وبحـراً وأنت برٌّ رحـيم

ويقول فيه صاحب كتاب (النهل الصافي والمستوفى بعد الوافي) إنه كان « بديع النظم ، عذب التراكيب ، غواصاً على المعانى، فصيح الألفاظ، حلو النادرة ، وكان صاحب مجون ولطافة »

وقد رأيت حقاً أنه يمتاز بالغوص على المعانى ، من شعراء عصره المتهالكين على التصنيع فى الألفاظ ، ومكانه بينهم يشبه مكان ابن الرومى بين شعراء عصره ، مع ملاحظة الفارق الكبير بين الشاعرين وبين المصريين .

ولكنا نريد أن نتصفح أبا الحسين الجزار من وجه آخر وهو طبيعة شاعريته ، ومدى صدقه الفنى فيما قاله من الشعر . وأرانى مضطراً هنا فى هذا المقام المحدود الذى يجمل فيه القصد إلى الأهم ، إلى أن أضرب صفحاً عن القصائد الطويلة الكثيرة التى أنشأها فى المدح يدافع الرغبة الملحة فى رفع مستوى عيشه وهى لا تختلف كثيراً عن أمثالها مما تحشـد فيها صفات المدح حشداً للممدوحين ؛ وهذه القصائد وإن كانت كذلك إلا أننا لا نعدم فيها أبياتاً هنا وهناك تظهر فيها ظلال الشـاعر وأثر شخصيته ، وهى التى يصف فيها حاله وسوء عيشه .

وإذا أردنا أن ننتقل إلى الميدان الذى كان يركض فيه مجلياً فإننا نضم تلك الأبيات إلى شعر كثير آخر قاله فى التعبير عن مشاعره وتصوير ما يحيط به ، ولست أدرى أكان من حسن الحظ أم من سوئه أن السوق التى راجت فيها مدائحه لم تدم ، إذ انتهى العصر الأيوبى فى أواسط عمره ، ولم يعد باقى من حكام المماليك ما كان يظفر به من صلات الملوك الأيوبيين التى لم يبق تبذيره على شىء منها ولما عانى من كساد مدحه وجفاف أيدى الممدوحين ما عانى جعل يندب حظه الذى ضاع بين الشعراء والجزارة فيقول :

واللحـم يقبح أن أعو د لبيعه والشـــعر باثر
يا ليتنى لا كنت جزّا راً ولا أصبحت شـاعر

ولكنه حزم أمره ورجع إلى الجزارة ، وجلس بدكانه للكلاب ، كما كان يجلس الممدوحون له ولأمثاله من الشعراء وهو يقول فى خطاب من يدعى (شرف الدين) وقد لامه على العودة إلى الجزارة :

لا تلمنى يا سيدى شرف الد ين إذا ما رأيتنى قصابا
كيف لا أشكر الجزارة ما عشـ ت حفاظاً وأرفض الآدابا
وبها أضحت الكلاب ترجيـ ني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وراح يفاخر بحرفته ، ويمزج المفاخرة بالظرف والفكاهة فيقول :

ألا قل للـــذى يســأ ل عن قومى وعن أهلى
لقـد تسألُ عن قوم كرام الفرع والأصـل
ترجيهم بنـو كلب وتخشـاهم بنو عجـل

ويقول :

إنى لمن معشر سفك الدماء لهم دأب وسل عنهم إن رمت تصديق
تضىء بالدم إشراقاً عراصهم فكل أيامهـم أيامُ تشريق

واستخدم الشاعر الجزار صناعته فى معانيه وتورياته ، فرق وظرُف ، ومن ذلك غير ما تقدم ما قاله فى الذم :

لا تلمنى إذا سـطوت عليـه فهـو تيس يهينـهُ جزاره

وما قاله فى التطاول على المتنبى :

تعاظم قدرى على ابن الحسين فذهنى كالعـارض الصـّيب
وكم مرة قد تحكمتُ فيـه لأن الحروف أبو الطيب

وقد نهج هذا النهج فى استخدام الحرفة فى الشعر شاعران آخران كانا معاصرين للجزار وصديقين له ، هما السراج الوراق والنصير الحامى ، وقد برع الثلاثة فى التورية بحرفهم ، وبلغ « فن التورية » على أيديهم غاية الإجادة التى انحسر عنها فى الأزمان التالية ، قال الحموى فى (خزانة الأدب) : « ولم يزل ابن سنا الملك يتلاعب فى التورية باختراعاته ويسكنها فى عامر أبياته ، إلى أن ظهر بعـده السراج فجلا غياهبها بنور مشكاته ، وتعاصر هو وأبو الحسين الجزار والنصير الحامى وتطارحوا كثيراً وساعدتهم صناعتهم وألقابهم فى نظم التورية حتى إنه قيل للسراج الوراق لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك » .

ولئن جازت الاستهانة بالتورية باعتبارها إيغالا فى التصنيع لقد كان لها شأن آخر فى شعر هؤلاء ، فقد أكسبتها حرفهم طلاوة وروتها بماء الظرف ، قال الوراق :

يا خجلتى وصحائفى سود غدت وصحائف الأبرار فى إشراق
وموبخ لى فى القيامة قال لى أكذا تكون صحائف الوراق

وكتب الحامى الى الجزار :

ومذ لزمتُ الحمام صرت به خلا يدارى من لا يداريه

أعرف حر الأشيا وباردها وآخذ الماء من مجاريه

فأجابه الجزار بقوله :

حُسن التأنى مما يعينُ على رزق الفتى والحظوظ تختلف
والعبد مذ صار فى جزارته يعرف من أين تؤكل الكتف

وقد كان الجزار مطبوعاً على المرح ، وشعره يزخر بالملح والفكاهات وخاصة فى (قافية الجزارة) كما يعبر (أولاد البلد) فى مصر ، وهو فى ذلك وفى طريقة دعابته بالسخرية من سوء أحواله فى ملبسه ومطعمه ومسكنه وبعض أفراد أسرته وفى مجونه واستعمال التورية فى كل ذلك يمثل الروح المصرية التى لا تزال نلقاها فى القاهرة لدى (أولاد البلد) وأصحاب الحرف ، قال يصف نصفية له :

لى نصفية تعد من العمـ ـر سنيناً غسلتها ألف غسلة
ظلمتها الأيام حكما فأضحت فى العذاب الأليم من غير زلة
كل يوم يحوطها العصر والدق مراراً وما تقر بعـــملة

وفى البيت الأخير إشارة إلى ما كان فى عصره من ضرب الناس وتعذيبهم « فى جباية الضرائب » ليقروا بما عندهم من « العملة » فهو يقول إن نصفيته تعصر وتدق على الحجر عند غسلها وهى مع ذلك لا تقر بأن لديها نقوداً ... !

وقال يصف داره :

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت الى السابعة
طريق من الطرق مسلوكة محجتها للورى شاسعة
فلا فرق ما بين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم فتصغى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت إذا زلزلت خشيت بأن تقرأ الواقعة

وفى الأبيات التالية صورة للفكاهة المصرية الأصيلة :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر
وجاد عليهـــا سكر دائم الدر
وتباً لأوقات المخلل إنهـــا تمر بلا نفع وتحسب من عمرى
ولى زوجة إن تشتهى قاهرية أقول لها ما القاهرية فى مصر

وقد بلغ غاية الظرف فى قوله يهجو زوج أبيه :

تزوج الشيخ أبى شيخة ليس لها عقل ولا ذهن
لو برزت صورتها فى الدجى ما جسرت تبصرها الجن
كأنها فى فرشها رمة وشعرها من حولها قطن
وقائل قال فما سنها فقلت ما فى فمها سن

ومن نوادره ذات الموضوع أنه كان مع جماعة من أصحابه ، فرغبوا إليه أن يشترى لهم لحماً من أحد الجزارين رجاء أن يكرمه بحق الزمالة ، فذهب وعاد إليهم بلحم ردىء ، فلما سألوه فى ذلك قال لهم : إن الجزار حلف على أن أقطع اللحم بيدى كما أريد مبالغة فى إكرامى ، فلما أمسكت بالسكين ووقفت بإزاء اللحم « أدركنى لؤم الجزار ! »

وقد كان التصنيع طابع الشعر وهم الشعراء فى ذلك العصر ، ولم يكن للجزار فكاك منه ، ولكنه كان مستظرفاً فى صناعته لم يسف فيها ولم يبرد كما أسف وبرد غيره وخصوصاً من أتى بعده فى العصور التالية . وكان مع ذلك ينطلق محلقاً مستجيباً لشاعريته عند ما كان يصور حياته الخاصة ويتحدث عن حرفته وملابساتها ويلذع من يعرض به من أجلها ، ويداعب إخوانه ، ويرسل فكاهاته ؛ فقد كان يبلغ فى هذه الموضوعات مايريد ، ومايقتضيه فن الشعر ، من تصوير ما يحيط به والتعبير عن ذات نفسه المطبوعة على المرح المحبة للهو ، ولعله كان يبدد بفكاهته مايتكاثف فى سمائه من سحب الهموم والأكدار فى بعض الأحيان .

العباسى مضر

إدارة البلديات العامة — سيطانبط

تقبل المطاءات بإدارة البلديات العامة « بوستة قصر الدوبارة » لغاية يوم ٩ مارس سنة ١٩٤٨ عن توريد غلاية ورشاشة للأسفلت لبلدية الأقصر وتطلب الشروط والمواصفات الخاصة بذلك من الإدارة على ورقة تمغة فئة الثلاثين مليما مقابل مبلغ ١ جنيه للنسخة الواحدة عدا أجرة البريد.

٨٥٩٦